الفصل الرابع

النهضة فى اسبانيا

لقد تعاقبت على أسبانيا غزوات الغزاة ، لكنها جميعا لم تستطع أن تفرض لغتها على أهل البلاد ، وهى فى ذلك شبيهة بالفُرس التى لبثت لغتها قائمة فى وجه الفاتحين ، ففى القرون الثلاثة الخامس والسادس والسابع ، كانت إسبانيا خاضعة لحكم القوط ، لكن لم يترك هؤلاء فى لغتها إلا أثراً طفيفا ؛ ثم جاءت قرون سبعة كانت السيادة فيها للعرب ، ومع ذلك بقيت اللغة الاسبانية حافظة لكيانها و إن ضمت إليها طائفة من الألفاظ العربية ، أما بناء العبارة وأوضاع الكلام فلم تتغير ؛ والشطر الأعظم من الأدب الاسبانى مكتوب باللغة الكاستيلية « القَشْتالية » التى كان مركزها فى « توليدو » « طُلَيطلة » كما كانت اللغة التسكانية هى لغة الأدب فى ايطاليا ، وكان مركزها فلورنسه ، وكما باتت لهجة أهل الوسط الشرقى فى انجلترا لسان الأدباء ، وكانت تتمثل فى أكسفورد ولندن

وأول من نبغ من الكتاب الاسبان فى أوائل النهضة هو « جوان رويز (Juan Ruiz) » « حوالى ١٣٥٠ ميلادية » الذى كان فى انتاجه وفى موقفه من الحركة الأدبية شبيها بشوسر[١] فى الأدب الانجليزى ، حتى لقب « بشوسر الاسبانى » ، وقد صور لنا فى أدبه حالة اسبانيا وأهلها فى القرن الرابع عشر

ثم جاء « لوبيز دى أيالا (Lopez de Ayala) » (١٣٣٢ — ١٤٠٧) الذى نظر إلى العالم الفاسد من حوله نظرة قاتمة ؛ وقد لبث « دى أيالا » بضعة أعوام سجيناً فى إنجلترا ؛ وعاش فى عهد أربعة ملوك غلاظ قساة هم « بطرس القاسى » و « هنرى الثانى » و « يوحنا الأول » و « هنرى الثالث » وأرخ للحوادث فى ذلك العهد فى « مذكراته "Les bhroniques" » ؛ ومن آثاره الأدبية الأخرى أنه ترجم للاسبانية أجزاء من المؤرخ اللاتينى « لڤى »[٢]

---

(١) اقرأ عن شوسر الفصل القادم .

(٢) راجع فصل الأدب الرومانى فى الجزء الأول من قصة الأدب فى العالم .

والكاتب الإيطالى « بوكاتشو » وكذلك كانت له محاولات فى قرض الشعر على الأبحر المستحدثة فى عصر النهضة ، فكان بحق بشيراً بالنهوض الأدبى فى اسبانيا .

ومن كتّاب اسبانيا البارزين كذلك « جورج مانريك Gorge Manrique » (حوالى ١٤٤٠ — ١٤٧٩) الذى عالج بأدبه الجوانب المألوفة من الحياة الإنسانية ، ومن ثم كانت شهرته الواسعة ؛ وكذلك اشتهرت فى النهضة الاسبانية امرأة متصوفة هى « سانتا تريزا Santa Teresa » (١٥١٥ — ١٥٨٢) إذ عرفت بشعرها وقصصها وخطاباتها الأدبية ودعوتها إلى الاصلاح الدينى ، ثم أعقبها فى الظهور أديب اسبانيا العظيم « سرڤانتيز » وسنتناوله بشىء من التفصيل لمكانته العظيمة فى آداب العالم .

سرڤانتيز Cervantes :

كانت حياة « ميجويل دى سرڤانتيس ساڤيدرا » "Miguel de Cervantes Saavedra" (١٥٤٧ — ١٦١٦) معركة طويلة متصلة ، حارب بها البؤس والفقر والحظ العاثر ؛ فقلما تجد بين رجال الأدب فى العالم كله من احتمل من العناء ما احتمله « سرڤانتيز » .

لم يكن حظ سرڤانتيز من التعلم كبيراً ، فقد وقف عند مرحلة التعليم الأولى ، وليس صحيحاً ما زعمه بعض مؤرخيه من أنه دخل الجامعة ، إذ حسبنا أن نعلم أنه يعترف بجهله باللاتينية ، لأن الجامعات فى ذلك العهد لم تكن تعنى بشىء عنايتها بتلك اللغة ، ولما كان صبياً عمل خادماً لأحد الكرادلة ، وكان لسيده الكردنال ابنٌ ربطته أواصر الصداقة بسرڤانتيز ، ثم حدث لابن الكردنال أن اقتتل فى سبيل فتاة أحبّها مع رجلين شهرا فى وجهه السلاح ، وكان يعاونه فى القتال صديقه سرڤانتيز ، فقتلا الرجلين معاً ، وفرا هاربين إلى دير ، ومن ثم هاجرا إلى بلد أجنبى متنكرين فى ثياب الرهبان ، وكان سرڤانتيز إذ ذاك قد بلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً .

ونشبت حرب بين اسبانيا وتركيا ، فأسرع سرڤانتيز إلى صفوف المحاربين ، لكنه لم يلبث أن فقد ذراعه اليسرى فى معركة « لپانتو » التى انتصر فيها الأسطول الاسبانى على الأسطول التركى ؛ فأراد سرڤانتيز أن يعود إلى بلاده ، وطلب إلى قادته أن يزوّدوه بخطابات التوصية لملك اسبانيا فليب الثانى ؛ وظفر بما أراد ، وأقلع من نابلى على ظهر سفينة

تحمل جنداً وتقصد إلى اسبانيا ، لكن السفينة سرعان ما سقطت غنيمة فى أيدى القراصنة الجزائريين قرب شاطئ الرفييرا الفرنسية ، وكان من سوء طالعه أن وجد القراصنة خطابات التوصية التى كان يحملها موجهة إلى الملك ومرسلة من أعظم القواد ، فرسخت عندهم العقيدة أن أسيرهم رجل له مكانته ، فضاعفوا فى فديته وجعلوها مبلغاً طائلا من المال لم يكن فى وسع أسرته أن تدفعه ؛ وبقى سرڤانتيز فى الأسر خمس سنوات عاش خلالها حياة هينة ، إذ ظن آسروه أنه من أسرة نبيلة فلم يكلفوه ما كلفوا سواه من العمل الشاق ؛ ثم جاء راهب من اسبانيا ليفاوض فى افتداء النبلاء الأسرى ، وقد اتصل بسرڤانتيز وأحبه فافتداه فيمن افتدى ، وكان على ظهر سفينة على وشك أن تقلع به إلى القسطنطينية لتبيعه رقيقاً فى أسواقها بعد أن طال انتظار الآسرين لفديته ؛ ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد أن أمه كانت طوال تلك السنين تحاول ما وسعها أن تجمع لابنها الفدية المطلوبة حتى ناءت فى سبيل ذلك تحت عبء باهظ من الدين .

عاد سرڤانتيز إلى اسبانيا فاطّرح الجندية ليعتنق الأدب ، وأخذ يقرض القصائد ويكتب الروايات التمثيلية وينشئ نقداً أدبياً ؛ فكتب كثيراً من قصائد المدح لعله يجد مَنْ يحميه بين رعاة الأدب الأغنياء ولكنه لم يُصِبْ نجاحا ؛ وكاد لا يجد ما يقتات به ، فأخذ يكتب للمؤلفين إعلانات منظومة عن كتبهم ليعيش من كسبه الضئيل ؛ ثم تزوج سرڤانتيز من أرملة غنية ، وحاول أن يكتب للمسرح فأخرج له ما يقرب من ثلاثين رواية جاءته بربح قليل مع أنها على حد تعبيره « لم تقابل من النظارة بالقذائف تُرْمى على الممثلين وبالصفير وبالمواء » .

وكانت اسبانيا حينئذ تُعِدُّ أسطولها العظيم « الأرمادا » لتحارب به إنجلترا ، فعين سرڤانتيز فى إحدى الوظائف الرئيسية فى الجيش ، لكن شاء جده العاثر أن تضيع منه مائتا جنيه فزج فى السجن ، ثم قدم للمحاكمة ، فاختفى عامين ظهر بعدهما فى « بلد الوليد » وكانت سنه سبعة وخمسين عاما ، وكان معه مخطوط آيته الخالدة « دون كيشوت » Don Quichote ولم يلبث الجزء الأول من هذا الكتاب أن صادف رواجا شديداً ، لكنه لسوء حظه لم يكسب منه إلا قليلا لأن حقوق الطبع لم يكن معترفا بها ، فسطا على الكتاب من سطا ، وهرب ربح الكتاب إلى سواه .

لم ينقطع سرفانتيز عن إنتاجه الأدبي ، وأخرج كتاباً ثانياً عنوانه « القصص النموذجية » وهى مجموعة من القصص الرمزية ، وكذلك أخرج قصيدة طويلة عنوانها « رحلة إلى بارناسس ثلاثية القافية » [1] (Voyage to Parnassus in terza rima)، لكنه فى تلك الأثناء كلها لم ينقطع عن التفكير فى أعز آثاره لديه وأدناها إلى قلبه ، وهو « دون كيشوت » فأخرج الجزء الثانى منه وأعطاه للناشر عام ١٦١٥ ، وعندئذ طبقت شهرته الخافقين ، وترجمه إلى الانجليزية عندئذ « سكالتن Skelton » لكنه برغم ذلك كله ما انفك يعيش فى فقر مدقع وضنك شديد

قصة دون كيشوت ضحكة ساخرة يوجهها سرفانتيز إلى ما يلعب بخيال الانسان من مثل عليا كثيراً ما تكون لسوء الحظ متنافرة مع حقائق الحياة العملية ، فدون كيشوت رجل نبيل فقير يعيش فى أرض لا زرع فيها ، أزاح المطر عن سطحها التربة الخصبة ولم يبق منها إلا صخوراً ورمالا ، فأصبح نبلاؤها كزارعيها فى مسغبة لا تنبت لهم الأرض ما يقيم أودهم ، فيفر دون كيشوت من هذا الواقع الأليم إلى دنيا الخيال ، ويأخذ فى قراءة كتب عن فروسية العصور الوسطى ، فما هو إلا أن يملك عليه اللبّ هذا اللفظ الفخم ، وتلك المشاعر الجياشة العالية ، فيشترى كل ما يقع عليه من كتب الفروسية ، لكنه يحتاج مالا ليشترى هذه الكتب فلا يسعه إلا أن يبيع أرضه الجدباء جزءاً جزءاً وبدل أن يعنى بفلاحة أرضه واستنباتها أخذ يناقش قسيس القرية (وكان قسيساً متبحراً فى العلم) ويجادل حلاق القرية عن تقدير الفرسان القدامى والمفاضلة بينهم ، ترى هل يفضل « پالمرين » الفارس الانجليزى زميله الغالى « أماديس » أم العكس ؟ تلك وأمثالها كانت فى نظره من أعوص المسائل التى لا مندوحة له عن إدمان القراءة حولها حتى يتبينها ويجتليها ، وهكذا تدرج به الأمر حتى أصيب المسكين بنوع من الجنون الخفيف ، وذلك أنه رأى حتما لازماً عليه أن يكون هو نفسه فارساً كهؤلاء الفرسان

---

(١) "Terza rima" هذه الألفاظ إيطالية الأصل وهى تطلق على قصائد من الشعر تتكون من وحدات . كل وحدة ثلاثة أبيات . ترى فى الوحدة الأولى البيت الأول والثالث من قافية واحدة بينما البيت الثانى يكون من قافية البيت الأول والبيت الثالث من الوحدة التالية وهكذا . ولقد ترجمناها حرفيا « بالقافية الثلاثية » . وأما پارناسس فهو الجبل الذى تسكنه ربات الشعر ببلاد اليونان .

الذين يقرأ عنهم القصص ، وأن يضرب فى أرجاء الأرض على ظهر جواده وفى شكته ليبحث عن مغامرة كتلك المغامرات التى استهدف لها أبطال الفرسان ، وأن يمارس بنفسه كل ما قرأ من أعمال الفرسان السابقين ، فيثأر لكل ضروب العدوان ويهب نفسه لأخطار ومغامرات لو أصابه التوفيق فيها لكتب له الخلود ، وهكذا رسخت عند المسكين تلك العقيدة رسوخاً حدا به أن يهم بالتنفيذ .

وكان فيما ورثه عن آبائه شكة يعلوها الصدأ وليس لها غطاء للرأس . لكنه لم يلبث أن أكمل نقصها بقطع من الورق المقوى ، وكان له كذلك سيف مكسور المقبض فشرع يربط أجزاءه بعضها ببعض ، وله حربة بحيلة وحصان هزيل لكنه ظن أنه جواد كريم ، أين منه جواد الاسكندر الأكبر المشهور الذى يطلق عليه « بيوسفالس » (ذو الرأسين) ؟ وهل يجوز أن يكون لجواد الاسكندر اسم خاص به ولا يكون لجواده هو اسم ؟ فأنفق أربعة أيام كاملة يفكر ويفكر ماذا عسى أن يسمى حصانه ذاك الكريم ، وأخيراً استقر رأيه على أن يتخذ « روسنانتى » اسماً له ، ثم نشأت له بعد ذلك مشكلة أخرى ، وهى أن يختار لنفسه اسماً خليقا أن يقرن إلى مثله ، فلا يصح أن يقنع باسمه العادى « كويسارا » ، وقلب صحائف كتبه فإذا به يرى « أماديس » الفارس المشهور لا يقنع باسمه فيضيف إليه اسم بلده ، ولهذا أطلق فارسنا على نفسه اسم «دون كيشوت لامانشا » وبهذا ظن أنه يزيد من شرف بلده « لامانشا »

بدأ دون كيشوت رحلته مرتديا شكته العتيقة المهشمة المضحكة ؛ فسافر يوما كاملا دون أن يصادف مظلوما يعمل على إنصافه ، أو وحشاً ضاريا يلاقيه فيفتك به ، أو فتاة أحاط بها الخطر فيسرع إلى إنقاذها ؛ وأخيراً بلغ فندقا صغيراً يقوم على إدارته رجل عملى على شىء من بلادة الذهن ، وفيه خادمتان فاجرتان ، فتبدو لعينه هاتان المرأتان « عذراوين جميلتين جالستين فى غير تصنع عند باب الحصن » فيوجه الخطاب اليهما فى ألفاظ رنانة ومعان شعرية خلابة ، وتنصت له العاهرتان فى صبر ما كر ، حتى إذا ما فرغ من خطابه سألتاه : « هل تريد طعاماً ؟ » فيتذكر دون كيشوت أنه لم يأكل طيلة نهاره ، وأنه لابد له من قوت يسد به رمقه ليحتفظ بقواه لما هو مقبل عليه من أهوال جسام ، فيطلب الطعام ويأكل ؛ لكنه مؤرق الجنبين مهموم ، لأنه يعلم أنه ليس فارسا حقا ، إذ لابد للفارس

الحق أن ينصب فارسا بصورة رسمية تواضع عليها العرف ؛ فخول لصاحب الفندق أن يضربه على رأسه بالسيف تلك الضربة التقليدية التى لا يكون الفارس فارسا إلا بها ، وأن ينطق بالعبارات المألوفة التى تقال عند تنصيب الفرسان ، ويطيعه صاحب الفندق ، لأنه كسائر أصحاب الفنادق لا يترددون فى إرضاء زبائنهم ماداموا يدفعون ما يطلب اليهم أن يدفعوه .

ثم لم يلبث دون كيشوت أن أبدى جهلا شنيعا بشئون هذه الدنيا العملية ؛ فها هوذا صاحب الفندق يقدم له قائمة بالحساب ، فلا يجد فى جيوبه مليما واحداً ، ولم يحمل المال مع أنه لم يقرأ قط فى قصص الفرسان أن فارسا حمل ماله معه فى رحلاته ومغامراته ؛ ولم يدر دون كيشوت أن مظاهر الشرف والفروسية لابد لها من مال ، فأفهمه صاحب الفندق هذه الحقيقة ، وبهذا تلقى أول درس فى عيوب هذا العالم ونقائصه ؛ ويعود دون كيشوت إلى داره ليبيع هـذا ويرهن ذاك ، ويخرج فى كلتا الحالتين بصفقة المغبون ، حتى تجمع لديه قدر ضئيل من المال .

وقبل أن يغادر منزله هذه المرة تذكر فجأة أنه لا بد له من تابع كما كان لسائر الفرسان ، لـكن دون كيشوت لم يكن ليستطيع أن يظفر بمثل هذا التابع إلا إذا أغراه بالمال والسلطان ؛ وكان له جار يدعى « سانكو بانزا » ، وهو رجل شريف لـكنه محدود الذكاء ، فأخذ دون كيشوت يشرح له كيف أنه مقبل على حروب تحقق المثل الأعلى ، وأنه لا ريب منتصر ظافر ، ثم وعد سانكو بانزا أن يمنحه أول جزيرة يغزوها فتكون ملـكا خالصا له ؛ فرضى سانكو بانزا أن يكون تابعا لدون كيشوت لعله يحقق هذا المجد الموعود ، وفى الوقت عينه يجد طريقا للخلاص من زوجته ، ثم هو يتطلى بغله ويرافق دون كيشوت فى رحلته .

ويأخذ سرڤانتيز فى وصف الرحلة وما وقع فيهـا من فروسية كاذبة ، فى صورة فـكهة ساخرة : فها هوذا يصادف فى بعض الطريق فلاحا يضرب خادمه ، فيطلب اليه الفارس المخدوع أن يمسك عن ضربه وإلا طعنه بحربته ، فيجيب الفلاح إن ضرب الخادم حق له بحكم القانون ، فيرد عليه دون كيشوت إنه مستعد لافتداء الخادم بالمال ، فلا يمانع الفلاح ويمسك عن ضربه ، فيمضى دون كيشوت وينتظر الفلاح عبثاً أن يعود

له الفارس بالمال ، وتغرب الشمس ويسخط الفلاح فينقض على خادمه المسكين ضربا مبرحا ليثأر وينتقم ، وهكذا أصلح دون كيشوت ما صادف من ظلم وإجحاف !

وهذا دون كيشوت يبصر طواحين الهواء دائرة ، فيظنها وحوشاً كواسر تتهيأ للوثوب عليه ، فيرفع رمحه فى يده ويندفع نحوها فى حماسة بالغة حتى يصطدم بذراع إحداها ويهوى إلى الأرض ، فإذا أفاق ظن أن جماعة من السحرة قد ردّت الوحوش طواحين هواء لتنقذها منه ! وهكذا .

و بعد ، فماذا يقصد سرڤانتيس بكتابه دون كيشوت ؟ إنه يريد قبل كل شىء أن يقضى على عصر الفروسية الذى ملأته الأوهام ليفتح أعين الناس لعلها ترى حقائق الدنيا الواقعة التى يعيشون فيها ؛ وفى هذا كان سرڤانتيز نقيض السير وولتر سْكُتْ (الكاتب الإنجليزى فى القرن التاسع عشر) الذى أراد فى عصره أن يعيد الفروسية إلى الوجود والحياة .

ثم أراد الكاتب فوق ذلك أن يصور لنا ضربا من الناس يعيش فى أوهامه ، وتتملكه فكرة خاطئة فتتحكم فى سلوكه كأنما هى حق واقع .

وإننا فى روايتنا لقصة الأدب فى العالم لنتعلم دروساً من هذا الكتاب ومؤلفه ؛ فسرڤانتيز مثل يصح أن يساق دليلا على استحالة التنبؤ بالسن التى يظهر فيها نبوغ النابغ ؛ فقد حاول سرڤانتيز فى شبابه أنواعا كثيرة من الكتابة نثراً وشعراً ، ولم تَبْدُ فيما كتب علامات النبوغ ؛ ثم لم يبدأ فى كتابة هذا الأثر الخالد « دون كيشوت » إلا وهو فى سن السابعة والخمسين فجاء كتاباً فى طليعة الآداب العالمية ، ولم يتردد « السير وولتر رالى » الناقد الإنجليزى فى القول بأنه « أحكم وأعظم كتاب فى العالم » .

ودون كيشوت مثل يصح أن يساق أيضاً لتفنيد الرأى القائل بأن الأثر الأدبى العظيم لابد من وضع خطته كاملة فى ذهن منشئه قبل الشروع فى إنشائه ، فقد بدأ دون كيشوت بغير ما انتهى إليه ، إذ كان ينحرف الكاتب فى طريقه هنا وهنالك عفو الساعة ، فها هو ذا « سانكو پانزا » أحد الشخصيات الرئيسية فى الكتاب ، لم يَدُرْ بخلد سرڤانتيز إلا بعد أن سار فى القصة شوطا بعيداً ، بل إن هذه الشخصية نفسها حين ارتسمت أول الأمر فى ذهن الكاتب لم تكن كاملة الأجزاء إنما أخذت تتكامل كلما مضى فى قصته .

وأخيراً تدلنا عظمة سرڤانتيز على خطأ الرأى القائل إن العبقرى ينبت فى عصر

الازدهار ، فقد كان سرفانتيز معاصراً لشكسبير ، ومات هذان النابغان فى عام واحد ، أما سرفانتيز فكان قد بلغ نضجه بعد أن تجاوزت إسبانيا أيام مجدها ، وأما شيكسبير فقد ازدهر وأينع عندما خرجت بلاده ظافرة على « الأرمادا » الاسبانية ، وكم قال النقاد وأفاضوا فى القول بأن العظمة الأدبية فى عصر اليصابات نتيجة لعظمة انجلترا فى السياسة والتجارة عندئذ ، فمن قائل إن روايات شيكسبير ومارلو ، وترجمة شابمان لقصيدتى هومر ، وغير هذه وتلك من آيات الأدب الرائعات فى عصر اليصابات ، نتيجة مباشرة لانتصار الاسطول الانجليزى على الاسطول الاسبانى ، إذ وسع هذا النصر الأفق العقلى عند الانجليز وأيقظهم ليبصروا ما هم فيه من عظمة ومجد ، لكنا نقول : هل كتب « العهد القديم » حين كان اليهود سادة العالم ، وهل أنشد هومر ملحمتيه لما بلغ اليونان أقصى مجدهم ، وهل تفجر من رابليه كتابه « جارجانتوا وبانتاجريل » إذ كانت فرنسا ظافرة فى حروبها ، وأخيراً كيف أنتجت هزيمة الأرمادا شيكسبير فى انجلترا وسرفانتيز فى اسبانيا فى وقت واحد ؟ إن كان شيكسبير نتيجة النصر العظيم فهل جاء سرفانتيز نتيجة الهزيمة المنكرة ؟ كم يبهرنا التعليل بعمق الفكرة فيه ، مع أن عمق الفكرة قد لا يخفى وراءه من الحق شيئاً ، ولعل سرفانتيز كان يرمى بكتابه ، فيما يرمى إليه ، إلى مهاجمة « الأفكار العميقة »

هكذا تجلت النهضة الأدبية الاسبانية فى سرفانتيز ، ولقد شهدت النهضة فى إسبانيا — كما شهدت فى ايطاليا وفرنسا وإنجلترا — اتجاهاً عاماً نحو الشعور القومى والإحساس بالوطن ، وظهر ذلك الاتجاه فيما نتج عندئذ من آداب وفنون ؛ وكان سرفانتيز لإسبانيا إذ ذاك لسانها الناطق ؛ ولو استثنينا روايات شيكسبير ، لكان كتاب « دون كيشوت » أجمل ما أنتجه عصر النهضة فى أوروبا على الإطلاق .

وشاء الله أن يلفظ سرفانتيز وشيكسبير آخر أنفاسهما فى يوم واحد .

لوب دى فيجا Lope de Vega (١٥٦٤ — ١٦٣٥) :

بلغت إسبانيا نهاية مجدها عام ١٥٨٨ حين أصيب أسطولها العظيم « الأرمادا » بهزيمة نكراء أمام الأسطول الانجليزى ، وكان سرفانتيز إذ ذاك فى الأربعين من

عمره ؛ وكان بين البحارة الإسبان شاب لا يزال فى فتوته وهو « لوپ دى فيجا » الذى عاد إلى وطنه سالماً ليكون مؤسس المسرح الإسبانى وزعيم الأدب هناك فى القرن السابع عشر ؛ وهو رجل ذاع صيته فى بلده ، لكن قل من يعرفه فى سائر البلدان ، على خلاف زميله سرفانتيز الذى أصبح أديب العالم أجمع ؛ وقد كان « لوپ » غزير الإنتاج إلى حد تدهش له العقول ، إذ أنتج ما يقرب من ١٨٠٠ رواية تمثيلية ! وصلنا منها ما يقرب من ٤٧٠ رواية . وذلك إلى جانب ما أنشأه من غير الروايات كالملاحم والأغانى الريفية والأقاصيص ؛ والعجيب أنك لا تجد بين هذا الإنتاج الخصيب شيئاً واحداً يصح أن يتخذ نموذجا لأدبه ونبوغه ، ولعل كثرة الإنتاج من شأنها دائما أن تؤدى إلى مثل هذه الحيرة عند الاختيار ؛ لكننا يجب أن نعجب بهذا الكاتب الذى استطاع أن يكتب الرواية من ذوات الفصول الثلاثة فى اليوم الواحد !

لم يكن « لوپ » فى تصويره لشخصياته يتقيد بنماذج معينة فهو يطلق الشخصية على سجيتها لتكون مطابقة للحياة الإنسانية الصحيحة ، ولم يأبه قط للأوضاع والقيود التى يحتمها أصحاب المذاهب النظرية من رجال النقد ، وهو فى تلك الثورة شبيه بمعاصريه الروائيين فى عصر اليصابات فى إنجلترا ؛ ولو قارنّا بينه وبين شيكسبير لقلنا إن له ما لشكسبير من نظرة إنسانية واسعة عميقة ، ومن قدرة فى الملهاة فائقة ، بحيث استطاع أن يرج النظارة رجاً من الضحك ، لكنه بالطبع لم يبلغ ما بلغه ذلك الجبار من أوج ، وخصوصاً فى المأساة ، ولعل ضعفه فى الشعر هو الحائل المنيع الذى صدّه عن مجاراة شيكسبير فى المأساة كما جاراه فى الملهاة ؛ أو لعل كثرة إنتاجه وسرعته هما علة ضعفه ، فقد كتب عشرة أمثال ما أنتجه شيكسبير .

بدرو كالدرون Pedro Calderon (١٦٠٠ — ١٦٨١) :

وأعقب « لوپ دى فيجا » فى الكتابة للمسرح « پدرو كالدرون » الذى يعده العالم أعظم كاتب مسرحى شهدته اسبانيا ، وعلة هذا التفضيل أن العالم لا يعرف « لوپ » حق المعرفة ؛ ومهما يكن من أمر ، فقد أخذ « كالدرون » يكتب للمسرح بعد « لوپ » حتى

أشرف القرن السابع عشر على ختامه ، وكان أقل انتاجا من سلفه لكنه كان أعظم منه شاعرية .

وقد ترجم « فتزجرلد » Fitz Gerald — مترجم رباعيات الخيام الى الانجليزية — ست روايات لكالدرون خيرها « عمدة زالاميا » وهى تبرز نواحى الضعف فى كالدرون كما تبين جوانب المقدرة سواء بسواء ؛ فقد كان عسيراً عليه أن يسلك أجزاء الرواية فى وحدة مسرحية متصلة ، ففيها مأساة وفيها ملهاة بل وفيها ألوان أخرى من ضروب المسرحية ، لكنه لم يوفق الى صب هذه الأنواع المتباينة فى قالب واحد متسق كما استطاع شيكسبير حين ألف فى بعض رواياته بين المأساة والملهاة — مثال ذلك « قصة الشتاء » — ؛ ومما يؤخذ على كالدرون فوق ذلك استطراده وانحرافه عن الجادة كلما عنّ فى سياق الرواية ما يغريه بالاستطراد والانحراف ، فينتج عن هذا أن تكون الرواية سلسلة من المناظر التمثيلية لا أكثر ولا أقل ؛ أضف الى ذلك أنه يورد فى الرواية أشخاصاً لا داعى لوجودهم ؛ غير أن هذه العيوب كلها إنما تمس الرواية من حيث البناء والتأليف ، وذلك لا ينفى أن تستمتع بالرواية جزءاً جزءاً ، ففى كل منظر لذة فنية قائمة بذاتها وإن فشلت مجموعة المناظرة فى أن تكون تأليفاً جميلا .

ولئن فات « كالدرون » أن يكون رائعاً فى تأليفه المسرحى ، فقد كان بغير شك بارعا فى مواهبه الأدبية من حيث جمال التعبير ، نعنى بهذا أن رواياته كانت تعتمد فى تأثيرها على جمال العبارة وقوتها لا على حوادثها وشخصياتها ؛ ومما يستحق الذكر أيضاً أن « كالدرون » كان أمهر فى بداية الرواية منه فى ختامها — وهو عيب ملحوظ فى كثير من كتّاب المسرحية — ، وأنه كان يقدم الشخصيات فى سياق الرواية لكنه يعجز عن تصويرها من نواحيها جميعاً ، وبخاصة فى شخصياته الهزلية ، فكثيراً ما كان بارعا فى تقديم الشخصية للوهلة الأولى ثم لا يستطيع أن يواصل تصويرها كما بدأها ، ولهذا ترى الشخصية فى ملاهيه لا تضحك النظارة إلا بموقف واحد فى أغلب الأحيان .

ومن رواياته التى ترجمها « فتزجرلد » غير « عمدة زالاميا » « مُصَوِّر العار » ورواية « احذر الماء الذى ينساب هادئاً » وفيها تصوير بديع لأختين مختلفتى المزاج — هما كلارا ويوجينيا — أما الأولى فتحب الوداعة والتحفظ ، وأما الثانية فتحب المرح والنشاط ،

استمع إليها — مثلا — إذ هما تتحدثان فى غرفة من بيت أبيهما فى مدريد :

كلارا — أحب فى هذا المكان هدوءه .

يوجينيا — أريد الشوارع الصاخبة مزهرة بحوانيتها وعرباتها وجنودها وسيداتها وفرسانها ؛ أريدها بما فيها من غبار الصيف ووحل الشتاء ، أريد مكانا تجلس فيه المرأة خلف ستار النافذة فترى كل ما يمر فى الطريق .

ذلك هو كالدرون بعيوبه ومزاياه ، وقد وصفه «جيته» — وهو خير حكم فى الإنتاج الأدبى — بقوله : « إن رواياته قد بلغت حد الكمال فى فنها المسرحى » لكنه عاد فى موضع آخر فقال عن شخصياته إنها متشابهة كأنها جنود صفت كلها فى قالب من صفيح » ؛ وحسبنا لكى نبين ما بلغه كالدرون من البراعة فى الفن المسرحى أن نشير إلى قصة تروى عن خفير كان ذات يوم بين النظارة ، وجاء على المسرح منظر تباع فيه البطلة الاسبانية لعربى ، فانتفض الخفير شاهراً سلاحه يرد ذلك العربى عن ابنة وطنه ؛ ففى هذا دليل على ما فى المنظر المسرحى من حياة وقرب من الواقع .

ولا نستطيع أن نطوى الحديث عن كالدرون قبل أن نشير إلى نوع من المسرحية أجاد فيه إجادة منقطعة النظير ، ونعنى به تلك الروايات الدينية التى تشبه « رواية المعجزة » التى سادت فى فرنسا وإنجلترا — وسيأتى وصفها عند الكلام على الأدب الإنجليزى فى عصر النهضة — وذلك أن عادة جرت بأن يمر فى الشوارع موكب فيه أشخاص يمثلون بملابسهم ومواقفهم بعض المناظر الدينية ، وقد ألف كالدرون من هذا النوع سبعين رواية .

لويس دى كامينس Louis de Camoëns (ولد عام ١٥٢٤) :

وجدير بنا فى هذا المقام أن نوجه نظرنا لحظة إلى جارة اسبانيا وأختها الصغرى ، وهى البرتغال ، فنذكر أمير شعرائها فى القرن السادس عشر « دى كامينس de Camoens » الذى كان بحاراً يضرب فى المناطق البحرية المجهولة بسفينة ضئيلة ، فعلمته التجربة المرة القاسية كم عانى « فاسكو دى جاما » — المستكشف العظيم الذى دار حول رأس الرجاء — من أهوال ، فأنشد الشاعر ملحمة لا يغفل ذكرها مؤرخو الأدب الأوروبى ؛ ففى هذه الملحمة التى يطلق عليها اسم « لوسياداس » Lusiadas أى سكان لوسيتانيا أو اللوسيتانيون [لاحظ أن اسم البرتغال كما ورد فى الأساطير هو لوسيتانيا] يقص قصة

أمته ، ويروى بطولة « فاسكو دى جاما » ، بل إنه ليتجاوز ذلك فيجعل ملحمته قصة الكشف البحرى أينما كان ، وقصة الكشف البحرى تروعك بما بين الإنسان والموج من صراع عنيف جبار ، وبما فى استكشاف الأراضى الجديدة من نشوة وانتصار ؛ فجاءت « لوسياداس » أقوى ملحمة تدور حول أهوال البحر بعد « الأوذيسية » فلو كان دى جاما شاعراً ، لما جرت شاعريته بأفضل من ملحمة « لوسياداس » ؛ وقد ترجمها إلى الإنجليزية فى القرن التاسع عشر « رتشارد بيرتن Richard Burton الذى كان مثل « دى كامينس » شاعراً ومغامراً .

وكان لهذه الملحمة فضل وطنى عظيم ، وذلك أنه لما احتل الاسبانيون لشبونة — عاصمة البرتغال — وجعلوا لغتهم الكاستيلية لغة البلاد الرسمية ، وقفت ملحمة « لوسياد » وحدها تحتفظ باللغة القومية ، وتثير فى البرتغاليين غيرة على لغتهم أن تجتاحها لغة الاسبان الفاتحين ؛ وإن فى هذا لمثلا قوياً يساق لقدرة القلم أحيانا على أن يقرر مصائر الأمم .

نهضت اسبانيا — كما رأيت — فى القرنين السادس عشر والسابع عشر نهضة زاهرة ، لكنها عادت فهوت إلى الحضيض فى انتاجها الأدبى ، حتى إنك لا تكاد ترى فيها فى القرنين التاليين أديباً واحداً يستحق أن يذكر إذا ما أردت أن تقص قصة الأدب فى العالم .